د.أمجد أحمد الزعبي
(جامعة فيلادلفيا –الأردن)
Email : dr.amjadzoubi@gmail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 12–2016 ص ص 9–41

Abstract

This research attempts to trace the concept of the 'Other' in the perception of Prince Abdul Qadir Al Jazairi in its historical and ideological contexts. The 1860 Damascus massacre occurred in a brief moment in the life of the nation. The study dealt with five sub-components: The other in the Emir Abdelkader thought before Damascus. Prince from captivity to Damascus. Damascus Massacre 1860. The role of the Prince in an attempt to prevent Massacre. Prince's role in the protection of Christians during the Massacre.

***Keywords**: Other, Damascus Upheaval, History of Algeria and Damascus, Tolerance.*

الملخص

تحاول هذه الدراسة تلمس الآخر في فكر الأمير عبد القادر الجزائري في سياقها التاريخي والمنهجي في ما يمثل الأمير من رمزية المقاومة وروح الأمة المتسامحة القادرة على الجمع ما بين المتضادات في نسيج جمعي جميل؛ كانت فتنة دمشق في سنة 1860م حادثة عابرة في حياة الأمة ولكن ما جعلها عابرة هي رؤية الأمير الاستشرافية بمقاربة قلّ نظيرها؛ مع فتنة ضربت المفهوم الجمعي ومفهوم التعايش بين ديانتين لازالتا تقدمان نماذج التسامح والمحبة والإخاء خارج التعصب والتميز .

الكلمات الدالة: الآخر، فتنة دمشق، تاريخ الجزائر و دمشق، التسامح .

تقديم :

تتشكل صورة الآخر في مفهومنا المعاصر وفق اعتبارات التفوق والعلوّ للثقافة والفكر الغربي؛ فالآخر منتج، منظم، متحضر، ديمقراطي، حقوقي...الخ. الآخر يعلم ويدرس ويخطط ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. ويقابل الأنا المتخلفّة، الغارقة في الخرافة، المتعلقة بالماضي. صورة نسجناها وأقنعنا أنفسنا بها، متناسين بقصد أو دون قصد قدراتنا الذاتية وتجاربنا السابقة في التعامل مع الآخر، وكيف استطعنا في مراحل تاريخية حرجة أن نجمع هذه القدرات ونذيب حتى الآخر الغازي ونستوعبه في إطار لا يميّز ولا يتعنصر. في حين أن الآخر تعنصر وميّز وسلب ونهب وكوّن لنا صورة نمطية وسمها بالإرهاب والتطرف .

تحاول هذه الدراسة تلمس الآخر في فكر الأمير عبد القادر الجزائري في سياقها التاريخي والمنهجي في ما يمثل الأمير من رمزية المقاومة وروح الأمة المتسامحة القادرة على الجمع ما بين المتضادات في نسيج جمعي جميل؛ نعالج شخصية نحتاج إلى الاسترشاد بفكرها في ظل فكر ظلامي تكفيري وإزاحة اللثام عن قدرتنا على التعامل مع الآخر في تجربة حياة وليس مجرد مفاهيم في الهواء لا معنى لها على الواقع.

كانت فتنة دمشق في سنة 1860م حادثة عابرة في حياة الأمة ولكن ما جعلها عابرة هي رؤية استشرافية سابرة عالجت أزمة وخففت آلاما ورسمت منهجا وطريقا لأجيال وأجيال في كيفية تقديم رؤية عصرية على الرغم من قدمها ؛عالجت الموروث والنص بمقاربة قلّ نظيرها؛ فكان الأمير منسجما مع ذاته متوافقا مع ما كان يؤمن به طريقا ومنهجا في تعاطيه مع فتنة ضربت المفهوم الجمعي ومفهوم التعايش بين ديانتين لا زالتا تقدمان نماذج التسامح والمحبة والإخاء خارج التعصب والتميز. الاشكالية الأساسية التي تبرزها هذه الدراسة هو اماطة اللثام عن دور مهم من حياة الأمير عبد القادر هذا الدور الذي قل مثيله في التاريخ العربي والتاريخ الإنساني.

وضمن هذا التصور قامت المعالجة بالعودة إلى المصادر الأولية بإعادة القراءة للمراجع بمحاولة لتقديم وإعادة قراءة ومقاربة وتحليل لما قدمه المفكر وما مارسه الأمير في معالجة الفتنة، وكيفية الخروج من مأزق يزداد تأزما يوم بعد يوما وبخاصة في ظل غياب الشخصية الملهمة القادرة على تلمس الطريق في آخر النفق وغياب المنظور الذي يضع مصلحة ووحدة الجماعة والصف أمامه. وليس المقصد هنا شخصية الفرد "الأسطوري" بل شخصية واقعية متقدة بالعطاء والبذل والتضحية.

عالجت الدراسة مكونات فرعية خمسة: الآخر عند الأمير عبد القادر قبل دمشق. الأمير من الأسر إلى دمشق. فتنة دمشق 1860م. الأمير عبد القادر ومحاولات وأد الفتنة. دور الأمير في حماية المسيحيين أثناء الفتنة وما قاله حكام العصر في الدور الإنساني للأمير وأخيرا الخلاصة والاستنتاجات.

أولا. الآخر عند الأمير عبد القادر قبل دمشق: 1860م.

الدخول في جدلية الأنا والآخر تفرض نفسها وإيقاعها في معرفة شخصية عالمية-إنسانية الطابع إسلامية المنهج عربية الهوى جزائرية المنبت. فبحث الأنا والآخر لدى الأمير عبد القادر كمن يغوص في محيط يتسع كلما أبحرت فيه، وكأنك كلما اقتربت تشعر أنك تصاب بالدوار: فشخصية البطل المجاهد، السياسي، الشاعر، المتصوف، والمهاجر. تنتظم فيها الأنا باتساق ويتسع فيها الآخر. فنمو شخصية الأمير –الأنا- تتقولب في النشأة الأولى فالأب يجد فيه تميزا وتوافقا مع ذاته يدفعه نحو الاهتمام به دونا عن أخوته الآخرين، هذا الاهتمام مع سلامة الفطرة توصله ليكون حافظا لكتاب الله في سن الثانية عشرة ودارسا لأصول الشريعة والدين الحنيف، وفي سن الخامسة عشرة يتزوج من ابنة عمه وفي السابعة عشرة من عمره اشتهر بشدة البأس وقوة البدن والفروسية (**الجزائري**، 1964، ج1، ص93، **تشرشل**، 1982، ص 41).

فالفضائل الأفلاطونية الأربعة تجتمع لديه: الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة؛ فالذكاء العقلاني وبداية تشكل الحكيم والاستقرار للمفهوم الديني الأخلاقي لديه تنضج وتتطور بتطور دور أميرنا عبر سني حياته **(ديلو، 2003م ص91-92)**. العديد من الكتاب أشادوا بالأمير ووصفه، فهو مربوع القامة معتدل الجسم أبيض اللون، أشهل العينين، أخبط يستعمل يساره يوصف بالبشاشة والتأدب ولين الطبع، بعيد عن التكلف والفخامة والأبهة، يميل إلى حياة التقشف والبدواة، يكره الجشع والإسراف(**سعيدوني** 2012، ص166-167**)**.

كان الآخر يتجلى اتضاحا في نسق الذات؛ فشخصية الأب محي الدين طليعية في مجتمع سادت فيه ملامح الوهن والضعف والفساد السياسي، فكان لابد من موقف مناهض للظلم والاستبداد فيوضع الأب والابن تحت الإقامة الجبرية 1823-1825م من قبل سلطة حاكم وهران التركي "حسن داي" لتكون فرصة الابن لينهل من مدرسة والده. فتأتي رحلة الحج والعلم لمدة سنتين فرصة حظي بها برفقة والده، سبيلا جديدا في التعرف على ذاته واكتشاف عوالم جديدة في العلوم والتجلي. في القاهرة يلتقي شخصية العصر"محمد علي باشا" فيبهره النسق الجديد في بناء الدولة والمدينة. فبعد رحلة الإيمان وتأدية الفروض والصلاة والسلام على رسول الله تتجه أنظاره إلى حاضرة الدولة العربية دمشق بما تحمله من موروث عربي يعبق بنفحات الفلسفة الصوفية: ابن العربي والحلاج وعلماء المسجد الأموي، ودمشق أقدم عاصمة في التاريخ ليقيم له ما شاء أن يقيم. لتكون بغداد حاضرة بني العباس العاصمة الإسلامية الطابع بتعدد مورثها العرقي والحضاري، محطته التالية مجتمعا ومتلقيا فيها للمعرفة على يد نخبة من علماء العصر؛ ويلبس هناك أبوه الخرقة القادرية من نقيب الأشراف وسليل الدوحة المحمدية قراءة ومشافهة. ليعود الموكب العظيم ويستقبل استقبال الفاتحين وذلك سنة 1828م **(الوزير**،1984، ص22-23؛ **تشرشل**، 1982ص 40-42**)** .

كانت العودة أوبة أخرى إلى الانكفاء على معرفة الآخر الفلسفية فخلال المرحلة ما قبل الاحتلال الفرنسي ينكب على قراءة أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ودراسة الموروث العربي الفلسفي ودراسة اللغة والجغرافيا والتاريخ، وكذلك تبحره في التصوف بتأثير والده ورحلته الأخيرة التي عرفته على محي الدين ابن عربي وهو الأكثر تأثرا فيه لتجعله فيلسوفا متصوفا، ولكن على طريقته الذاتية. هذه النظرة سوف تنعكس صورة من خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلبات الدين الإسلامي في كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، منتهيا إلى أن الديانات الثلاث تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الإنسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب **(الوزير**، 1984، ص22-23؛ **شرشار**، 2011، ص19-31**)**.

دفعت الأحداث وتسارعها بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر يوم 5تموز/يوليو 1830م إلى توحيد الكلمة والبيعة الخاصة للأمير "بيعة شجرة الدردارة "يوم 27 تشرين أول/نوفمبر 1832م. لتدفع إلى الواجهة قيادة شابة بعد أن رفض الأب محي الدين البيعة لنفسه حيث رأى: **"...** أن ولده مستعد لهذا الأمر، ووافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم، فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه"(**الجزائري**، 1964، ج1، ص98- 99 **)**.

وكانت البيعة العامة للأمير يوم 27 شباط/فبراير 1833م ليكون ذاتا بذاته فهو غير راغب بالسلطة كما دلت الحوادث "... قام من وفقهم الله الهداية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على كتاب الله والسنة فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر، ابن مولانا السيد محي الدين، فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم "**(الجزائري**،

1964، ج1، ص101-102). ويرى ناصر الدين سعيدوني: "كان ظهور الأمير عبد القادر على مسرح الأحداث وتوليه مقاليد الأمور في ظروف صعبة بمثابة نقلة نوعية في ممارسة السلطة في تاريخ الجزائر أساسها رغبة السكان ... وهذا ما يؤسس لقيام نظام شرعي ويكون قاعدة لبناء دولة وطنية..." (**سعيدوني2012**، ص188).

عمل الأمير بكل ما أوتي من قوة على بناء الدولة العصرية القائمة على جيش منظم يقود الجهاد وإدارة صارمة وعادلة، ونظام ضريبي دقيق قادر على مواجهة المتطلبات الداخلية، وإقامة صارمة للعدل الذي هو أساس الملك؛ وهذا تطلب منه الاهتمام بالتعليم وإقامة علاقات بالخارج والانفتاح على روح العصر والاتصال بالأصدقاء الذين من الممكن أن يهتموا لثورته، ويعينوه على مهمته. كل ذلك أساسه فهم عميق لروح الدين وحاجات العصر. فعمل الأمير على التخلص من أعدائه بلا هوادة وقطع صلته نهائيا بالإدارة العثمانية وبقاياها. فكان الدبلوماسي الفذ الذي فاوض إذا لزمت المفاوضة مع العدو فهو لا يخون ولا يغدر، فالاتفاق وان كان في غير صالحه لا ينقضه حتى يقوم الآخر بذلك. واستعان بالأجانب حين رأى أن ذلك ضروري لصيانة الدولة واستمرارها. فهو "الناسك الحاكم" أو "الفيلسوف الحاكم"(**تشرشل**، 1982، ص18-19).

فالناسك الحاكم قدم نموذجا فريدا في القدوة فهو لم يلبس أحسن مما يلبس القوم ولم يأكل أحسن مما يأكلون، تراه تصدق كلمات شعره فعله فهو الذي يتقدم الجند في المعركة وهو الذي يسهر على راحة رعيته؛ فقد قال لزوجته بعد أن تولى الإمارة التي أختار فيها لقب أمير ولم يختر لقب خليفة أو سلطان أو أميرا للمؤمنين، حرصا منه على الآخر الخليفة والسلطان وأمير المؤمنين- عثماني، مغربي- قال: "وان أبيت إلاّ تطلبي حقك فأمرك بيدك، لأني قد تحملت ما يشغلني عنك..."(**الجزائري**، 1964، ج1، ص97).

كانت خطوات الأمير في بناء الدولة خطوات الواثق العارف فهو ينتزع الاعتراف به من فرنسا كأمير على البلاد بالرغم من المحاولات التي قامت بها فرنسا لثني الأمير عن عزمه بالمال عارضة عليه مليون فرنك ولكنه يأبى قائلا: "عرض علي الماريشال بيجو Bugeaud بالواسطة مليونا لأترك السلاح فلم اقبل ذلك منه محافظة على عهدي وديني"(**الجزائري**، 1964، ج1، ص14).

كانت معاهدة دي ميشيل(Desmichels) 28شباط/ فبراير /1834 م، انتصارا باهرا للأمير في مجال الدبلوماسية فقد نصت: الاعتراف به كأمير للمؤمنين، وتبادل القناصل كما نصت المعاهدة على تبادل الأسرى وحرية العمل بالدين الإسلامي وحرية التجارة وضرورة تبادل المجرمين الهاربين. (**تشرشل**، 1982 ص17؛ **سعيدوني**، 2012، ص146).

فإذا كانت الدبلوماسية تعني فن الممكن والقدرة على توظيف كافة العناصر في سبيل قضية عادلة. نجده لا يتوانى عن دعم هذه القضية بتعيين الآخر الداخلي الشريك في الوطن ابن دوران وهو يهودي قنصلا له في مدينة الجزائر؛ وهذا نجده يتكرر بقيام الأمير بتعيين المسيو كزماني وهو إيطالي ووكيل للولايات المتحدة في الجزائر بعث له: "السلام على من اتبع الهدى... بلغنا أنك من أعقل الناس وأعلمهم بطرق السياسة...كتبنا لك هذا إعلاما بأن تكون عند الفرنسيين وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها وتجري أمورنا معهم على نظرك وتعرفنا بما هو الأصلح لنا معهم والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به... إننا نحب الخير والهناء والعافية والأمن في سائر الوطن"(**الجزائري**، 1964، ج1، ص216).

عارضت فرنسا هذا التعيين خوفا من تزايد نفوذ الولايات المتحدة من جهة ورغبة من الجنرال الفرنسي في كسر كلمة الأمير وجس نبضه فيما يتعلق بمهادنة فرنسا التي وقع معها الاتفاق وإضعاف لمركز الأمير؛ إلاّ أن رد الأمير جاء قاسيا، قائلا: "...ليس

لفرنسا حق أن تجبرنا على تعيين وكيل ضد إرادتنا وميلنا لأن ذلك منوط بنا... هذا يناقض مبادئ الشرف الذي يجب أن يراعى في كل الأعمال... فإن كنتم استحسنتم خرق الشروط وإبطال المعاهدة فنحن مع عدم الميل إلى ذلك نجيبكم ولا يخفى أن البغي وخيم ونتيجة الشر تعود على البادي... "**(الجزائري**، 1964، ج1، ص217 **).**

ومعاهدة تفنة 1837م التي لم يسرِ العمل بها سوى سنتين وخمسة أشهر تعتبر حلقة هامة في تاريخ الجزائر لسببين أولهما: أنها النص الوحيد المعترف به من الحكومة الفرنسية كاتفاق رسمي بينها وبين حكومة جزائرية في عهد الاحتلال. وثانيهما: لأن نصوص المعاهدة كانت مثار جدل بين الطرفين. أضف إلى ما تقدم أن السنتين اللتين تبعتا معاهدة تفنة قد أتاحتا للأمير التفرغ لمقاومة عصيان القبائل والطرق الصوفية، إضافة إلى بسط سيطرته على ثلثي الجزائر بحيث أصبح الفرنسيون محصورين في وهران والجزائر وفي جزء من بيلكيه قسنطينة **(خير بك**، 2012، ص425**).**

غير أن هذه المعاهدة قد تصدعت بسبب إصرار الفرنسيين السيطرة على قسنطينة إلى جانب توسع الأمير نفسه نحوها التي كبد فيها الأمير عبد القادر الفرنسيين خسائر فادحة، بعد أن دحرهم عن مناطق كثيرة. مما دفع بعض النواب الفرنسيين للقول عام ١٨٤١م : "إن افريقية هي الخراب أثناء السلم والضعف أثناء الحرب، إن افريقية شر وجنون...". ومع تعيين الجنرال بيجو الذي كان يطرح فكرة الاحتلال الكامل للجزائر معتبرا أن "الاحتلال الناقص وهم، إن احتلال الجزائر خطأ ولكن ما دمتم ترغبون فيه فينبغي أن تعملوه بقوة...". بهذه النبرة وبطريقة وحشية "سياسة الأرض المحروقة" من تدمير وحرق وقتل وزرع للرعب، أدت إلى سيطرة الجنرال على معظم الأراضي التي كانت تحت سيطرة الأمير مما اضطره إلى اللجوء إلى مراكش، حيث لقي الدعم والتأييد والترحيب مديرا عملياته من هناك. وهنا لابد من الإشارة إلى الحنكة والذكاء من قبل

الأمير فهو لم يطرح نفسه منافسا لأمير المؤمنين في مراكش ولم ينازعه فالمشروع الذي يتزعمه الأمير مشروع تحرر وطني(**خير بك**، 2012، ص 426).

اتفاق طنجة وفيما بعد اتفاقية لالا مغنية ما بين فرنسا وسلطان المغرب جعلت من الأمير خارجا عن القانون ؛ فاجبر الأمير على العودة إلى الجزائر محرزا انتصارات عظيمة على الفرنسيين؛ فتستخدم فرنسا كل قوتها مرة أخرى مجبرة الأمير على العودة مرة أخرى إلى مراكش، وبالرغم من حذر الأمير في تعاطيه مع سلطان مراكش إلا أن فكرة شخص الأمير كان يشكل شكوك عملت على تغذيتها القوى الاستعمارية وبخاصة فرنسا وانجلترا تتعلق برغبة الأمير بالاستقلال بالريف وخلع أمير المؤمنين سلطان مراكش؛ فصمم السلطان عبد الرحمن على إخراج الأمير بالقوة فأرسل قوة كبيرة بقيادة اثنين من أولاده، فخسر الأمير معركته الأولى مع الجيش المراكشي، فالحلقة تضيق والمسيرة تشارف على البدء من جديد في أفق آخر(**خير بك**، 2012، ص426-27).

إذا كانت المفاوضة مع العدو والصلح "جائز فيما إذا كان العدو مطلوبا لأن الجهاد فرض كفاية، ولا يجوز إذا كان العدو طالبا لأن الجهاد فرض عين؛ إلا إذا دعت إليه إبقاء على المسلمين وبلادهم فإنه يجوز والضرورة لها أحكام وقد يرى الشاهد مالا يراه الغائب"(**الجزائري**، 1964، ج1، ص213). فما بالك في عدو مالك للأمر وقريب متجهم؛ فتكون المفاوضة على الأمر الذي لابد منه - ضمن التصور السابق للأمير والذي مارسه الأمير في اتفاقيات سابقة مع العدو الذي بكل قوته لم ينزع منه اعترافا يشرعن الضم الفرنسي للجزائر- فالاستسلام هو ذل واستصغار، وهو مغاير حتى لمفهوم الأسر الذي هو بالإكراه والقوة وإنما كان برضا الأمير. فعندما اشتد الأمر على الأمير جمع خاصته وذويه وقال: "يا قوم إن الأحوال كما ترون والأخبار كما

تسمعون... أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد... ما ينيف على سبعة عشر سنة... ولا زلت أرى المنية ولا الدنية..." (**الجزائري**، 1964، ج1، ص324).

فدخول الأمير في مفاوضات مع العدو وهي ليست المرة الأولى وإنما الأخيرة في الجزائر. دخل الأمير هذه المفاوضات وهو لا يملك سوى ورقة واحدة وهو القبول بالحد الأدنى الذي يحافظ على كرامته وحياة من وثق به وهم قلة قليلة من الأتباع وأهل البيت، فما هي من شيم الأمير الاستسلام إنما هي سهم رماه وعرض قدمه للفرنسيين استمر ثلاثة أيام أبدى فيها رغبته بالخروج من الجزائر. فما كان من الجنرال الفرنسي لامورسير إلاّ أن أرسل للأمير كتابا ابيض مختوما بختمه يطلب من الأمير أن يضع ما يشاء من الشروط فجرى الاتفاق على أن يخرج الأمير إلى عكا أو الإسكندرية وأن لا يتعرضوا لمن يريد السفر من الضباط والعساكر والذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنا على نفسه وماله. ولما سار موكب الأمير مع الجنرال الفرنسي ووصل إلى الجزائر المدينة قال الأمير: "هذه الساعة التي قدُّر الله أن يكون ما نحن فيه الآن، وقد أخذت على الجنرال لامورسير عهدا وميثاقا فلا أخشى أن ينقضه ابن ملك فرنسا..." (**الجزائري**، 1964، ج1، ص325).

ومن الجدير ذكره في هذا المقام الرسالة التي بعث بها الأمير إلى لاموسير عندما تسلم وزارة الحرب أثناء أسره قال فيها "... إن كثيرا ممن لا إلمام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون أنك غلبتني في الحرب وأجبرتني على التسليم وإلقاء السلاح فينبغي لك أن توضح لهم القضية وتوقفهم على ما جهلوه من أمرنا... فإن وفيتم فإنكم تنالون فخرا كبيرا بين الأمم والدول وان نقضتم وألفتم فلا شك أنكم ترتكبون أمرا شنيعا يسقط به قدركم..." (**الجزائري**، 1964، ج2، ص16). ولكن الأخير يضيّق في الأسر على الأمير خوفا وخشية على منصبه وعلى الحقيقة التي أشار لها الأمير.

ثانيا.الأمير من الأسر إلى دمشق:

وثق الأمير بالفرنسيين الذين حملوه على أساس التزود بالمؤن على البارجة الفرنسية احمودة إلى ميناء طولون لتستكمل مسيرها بعد ذلك نحو الشرق، إلاّ أن حاكم طولون دخل عليه وقال له بأنه مأمور بان يرافقه نحو برج لاملاك لحين ورود الأوامر من باريس. أحس الأمير بالخديعة وأن الأمر أكبر من ذلك؛ فجاءه الكورنيل دوماس مندوبا عن الملك عارضا عليه الانتقال إلى باريس والإقامة فيها بما يليق، ومعتذرا عن السماح له بالسفر نحو الشرق فأجابه الأمير: "إني لا أقبل ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج... ومن عجيب ما يسمع أنني كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم... وعلى كل حال فالعار والعيب عليكم لا علي..." فعرض عليه مرافقة إبراهيم باشا ابن محمد علي فرد الأمير قائلا: "إبراهيم باشا يرى باريس... متنزها... أما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلاّ سجنا لي ولمن معي..." **(الجزائري، 1964، ج2، ص 5-6).**

فخشية الجانب الفرنسي من الأمير وعدم الثقة به من الممكن أنهما ما دفعا السلطات الفرنسية إلى عدم الالتزام بما تم الاتفاق عليه، فكيف يسمح لقائد ثورة بكل سهولة أن يتجه إلى الشرق حيث من الممكن أن يجد العون هناك ويعود أقوى مما كان **(مياسي، 2011، ص165-167)**. فقد طال المقام بالأمير وزاد شعوره بغدر وخيانة فرنسا، وهنا يدخل في عالم وكل أمره فيه لله؛ وندم أشد الندم على تركه سلاحه فقد كتب إلى ابن الملك معاتبا: "... من أكبر العار عليها غدرها بمن سلم نفسه إليها... ولو كنا نعلم الحال يؤول إلى ما إليه آل لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال..." **(الجزائري، 1964، ج2، ص6).**

أدى قيام الثورة الفرنسية ووصول الراديكاليين والليبراليين في شباط 1848م إلى السلطة بسبب سياسة رئيس الوزراء غيزو المالية و العسكرية وفرض الرقابة الصارمة على الحركة الوطنية (**الزعبي**، 2010، ص138). فطرحت مسألة الأمير من جديد ولكن بتشدد أكبر هذه المرة، وتعرض الأمير وهو صابر على الأسر للمعاملة القاسية والمهينة، فجاءه الكولنيل اوليفيان عارضا أن الحكومة تخشى إن سمحت له بالسفر إلى وجهته أن ينقض عهده ويعود إلى الجزائر ويجدد الثورة. كان الأمير بحالة من اليأس فهو يعلم كيف ترك الجزائر بجور القريب قبل جور الغريب وأنه ما عاد ولن يعود إلى ما بدأ به وأنها مرحلة من حياته انتهت ولا يريد العودة لها. فكان أن طلب اوليفان من الأمير أن يحلف على القرآن أن لا يعود لما كان عليه وأن لا يدخل في عمل ضد مصالح فرنسا. فكتب الأمير كتابا جديدا أكد فيه على الاتفاق الذي تم ما بينه وبين لامورسير وابن الملك قائلا: "... وأن أمرتم بأن أقسم لكم بالقرآن العظيم أني لا انقض لكم وعدا ولا أخلف لكم عهدا..." (**الجزائري**، 1964، ج2، ص10). وهنا يظهر مدى الانكسار الذي كان فيه الأمير، فما كان الأمير يملك من أمره شيء فهو يقول صابرا متجلدا على ذلك (على لسان أبو الأسود الدؤلي): (**الجزائري**، 1964، ج2، ص13).

تعودت مس الضر حتى ألفته وأسلمني طول البلاء إلى الصبر.

فقد خاطب دوماس عندما حاول أن يسرّي عن الأمير، أجابه بصرامة حزينة: "كيف يمكنك أن تعجب من أن ينهار صبري أمام عظمة نكبتي؟ أن عائلتي وأتباعي في يأس. وأن والدتي المسنة ونساء بيتي ينتحبون ليلا نهارا، ولم أعد احمل إليهم الأمل... وإنني أنا السبب في كل ما حل بهم من شقاء..." (**تشرشل**، 1982 ص256). وكان هذا دافعا ليكاتب السلطات الفرنسية مرات عديدة.

وتمضي على الأمير محنة طويلة ومع العودة إلى النظام الملكي وعودة نابليون الثالث للحكم، تجتمع الحكومة الفرنسية برئاسة نابليون للتشاور حول قضية الأمير وتختلف الآراء فأظهر نابليون ميله إلى صحة العهد ووجوب الوفاء به فأيده الماريشال بيجو وخالفه الباقون وكانوا أكثر عددا فلم يسع الرئيس إلا الموافقة، فيقوم الماريشال بيجو بإرسال رسالة إلى الأمير يعرض فيها عليه البقاء في فرنسا "وذلك بأن توطن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك وتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جيدة... والأراضي كبقية نبلاء فرنسا". ويجيبه الأمير برسالة حازمة جازمة قائلا: "لو جمعت فرنسا سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حرا فقيرا معدما لاخترت أن أكون حرا فقيرا فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فانه ليس عندي بعد هذا الخطاب جواب(**تشرشل**، 1982 ص263-64؛ **حمو**، 2013، ص25).

ظل الأمير على هذه الحال يعاني مر الأسر وذله، مذكرا في مراسلاته مع آسريه بالاتفاق الذي جرى معهم. وفي يوم الثلاثاء 16/أكتوبر/1852م، 03/محرم 1269هـ يزور نابليون الثالث الأمير في معتقل أمبواز ويسلمه وثيقة إطلاق سراحه قائلا له: "... إنكم قد جلبتم دقة نظري واستلزمتم محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة وجميع ما أبرزتموه من أنواع المدافعة عن وطنكم ولا أنظر إليكم بنظر أسير بل بضيف محترم... ولذلك أفتخر بإطلاقك واثقا ثقة تامة بقولك". رد الأمير بأحسن مما قاله نابليون وقدم له والدته فيقبل البرنس الفرنسي يدها ويسألها الدعاء، ويودع الأمير باريس باحتفال عظيم(**الجزائري**، 1964، ج2، ص39-40؛ **حمو**، 2013، ص27). ومما لا شك فيه أن العلاقة والجميل الذي لن ينساه الأمير كان مقصودا من نابليون والمستفيد من هذا كله وبخاصة أن هذا التكريم كان برغبة تحسين صورة الدولة

الفرنسية في أعين الجزائريين، ورغبة من الإمبراطور الفرنسي بعمل يعود عليه بالثناء وهذا ما يدل عليه فخامة الحفل والحضور الكبير وكأن فرنسا حضرت لوداع الأمير.

الأمير كان واعيا مدركا لما يقوم به"... إني أفعل ما أفعله وأترك ما أتركه بإرادتي"، وجدد الأمير قسمه"... وهل يتصور عاقل فضلا عن فاضل...أن أخونكم وافعل شيئا ينافي معروفكم وكيف والمعروف رباط معلق بأعناق أهل المروءة..." **(الجزائري، 1964، ج2، ص40).** وعندما قدم نابليون سيفا مرصعا للأمير قال له: " وأعلم أنني أقدم لك هذا السيف وأنا على يقين، بأنك لن تجّرده على فرنسا ". فأجاب الأمير" أنني الآن ممن يستعمل القلم، لا ممن يستعمل السيف" **(الجزائري، 1964، ج2، ص40؛ عبد القادر، د.ت. ص24).** وعندما زار الأمير دار الطباعة الفرنساوية سئل عما رآه فقال: "رأيت البارحة صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع وفي هذا اليوم رأيت الحروف التي تغلب بها أسرة الملوك وتخرب دولهم وهم لا يشعرون"**(الجزائري، 1964، ج2، ص44).**

سافر الأمير مودعا عهد السيف مستلا سيف القلم والموقف متعرفا على آخر يعرف عنه ويتوق له من أمبوز إلى استانبول يوم 8 كانون ثاني/يناير 1853م، ويزور ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري ويلتقي مع شيخ الإسلام العلامة عارف حكمت ويزور الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا ويحظى بزيارة السلطان عبد المجيد ويمدحه بقصيدة طويلة. وبعد عشرة أيام يرحل الأمير إلى بروسة محل إقامته الجديد ويعلل نفسه إنها مثل ما قالوا تشبه تلمسان:**(الجزائري، 1964، ج2، ص54).**

أما خيامهم فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

جلس الأمير يعيد نفسه إلى ما كان قبل الإمارة وفي غياهب الأسر مستدركا لذاته الجديدة وموغلا في القراءة والكتابة والتدريس؛ فأضحى مقامه محجا للزائرين من أهل

العلم من المغرب والمشرق فألف خلال إقامته في بروسة كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" والذي قدمه إلى المجمع العلمي الفرنسي في باريس بعد أن انتهى منه. ويقول أبو القاسم سعد الله عن هذا الكتاب "أما إنتاجه الآخر فتغلب عليه روح النقل، فكتابه ... مليء بالنقل الحرفي من "إحياء علوم الدين" للغزالي. "غير أن رابح بونار يرى أن رسالة الأمير هذه" قبس فكر يحاول الأمير أن ينازل بها فكرا ناضجا بما امتصه من أبحاث الإمام الغزالي وابن سينا وابن عربي وغيرهم، وقد صاغها بأسلوب واضح، وبترتيب متناسق، فكانت درة في الأدب النثري بالجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال، وتستحق منا كل عناية واهتمام" **(الجزائري**، 1964، ج2، ص64؛ **شرشار**، 2011، ص19؛ **تشرشل**، 1982 ص 28**)**.

تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية بقلم غوستاف دوغا وصدرت هذه الترجمة لأول مرة سنة 1858م، حيث اكتشف من خلالها القارئ الفرنسي مفكرا عربيا أصيلا، تكمن قوة شخصيته في الرؤية الخلافية للمنظور اللاتيني للفلسفة والمنطق، فمن خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلبات الدين الإسلامي، منتهيا إلى أن الديانات الثلاث تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الإنسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب. ويقدم المترجم في بعض الأحيان أوجه الشبه بين ما ذكره الأمير في كتابه وما يذكره بعض الفلاسفة الفرنسيين المحدثين في عصره، ويعبر المقطع الآتي عن هذه الفكرة بجلاء: " يتحدث عبد القادر كفقهاء السوربون، فهو في انسجام تام مع فكر البابا، إنه يشبههم تماما"**(شرشار**، 2011، ص18-19**)**.

بعد الزلازل الذي ضرب بروسة، أبدى للباب العالي رغبته في الانتقال إلى دمشق، فكتب الأخير إلى والي الشام نديم باشا لاستقباله، ويصل الأمير إلى بيروت على متن باخرة فرنسية ومعه مئتا نفس، فهرعت بيروت وأهاليها لاستقباله وعلى رأسهم والي بيروت نامق باشا واحتفلوا به احتفالا عظيما مع أمراء آل أرسلان حكام الدروز في جبل لبنان ونزل الأمير ضيفا على الكولونيال تشرتشل. ويمر بطريقه بعد إصرار أهل الجبل "الدروز" أن ينزل ضيفا عليهم وهنا نجد عبارة يقولها الأمير تنم عن فكر منفتح فهو يقول في وداعهم: "هدانا الله أن نظل متحدين". ثم يصل الأمير إلى دمشق ويستقبله واليها محمود نديم باشا وعزت باشا رئيس العسكرية ونخبة من الأعيان والأشراف. ثم يصل إلى دمر ثم الصالحية وينزل عند ضريح الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي ثم توجه إلى المحل المعد لنزوله بدار عزت باشا. دخل دمشق دخول الفاتحين العظام وتقدمت موكبه كتيبة من الجيش تعزف الموسيقى. وقيل أنه لم يدخل دمشق عربي بهذا الترحيب منذ صلاح الدين الأيوبي(**الجزائري**، 1964، ج2، ص66-67؛ **تشرشل**، 1982 ص276-77؛ **عبد القادر**، المواقف، 2004، ج1، ص11، **حمو**، 2013، ص28).

فقد شكل قدوم الأمير إلى دمشق نقطة تحول كبرى في ذات الأمير؛ فصورته التي سبقته: المجاهد العظيم سليل الدوحة المحمدية، العالم الزاهد. فيدخل من باب واسع في التعرف على المدينة وعلى أهلها وطبقاتهم. فكان الدرس والتدريس طريقه فتغص حلقات درسه بالطلبة الذين أبهرهم علمه وطريقته التي جمعت الموروث بالحديث، الأصول والعقيدة بالفلسفة مما جعله محط النظر في الجانبين الايجابي والسلبي؛ فقد كثر حوله الحسد والريبة من قبل السلطة ومن قبل علماء قل زائرهم (**تشرشل**، 1982 ص277).

ثالثا.فتنة دمشق 1860م:

تعود جذور الفتنة وهو مصطلح مخفف للمجزرة أو المذبحة إلى عوامل داخلية وخارجية، تداخل فيها التاريخ بالجغرافيا، الموروث الديني المتشدد مع الحداثة، القوى المحلية من أعيان وتجار وأغوات مع القناصل الأجانب ودولهم الكبرى. هنا الباحث لا يحاول تفسيرا لما جرى؛ ولكن الصورة الباقية لابد أن تطرح ذاتها في سياق فهم سلوك الأمير الواعي للدور الذي قام به خلال تلك المرحلة.

فقد كان لسياسات الدولة العثمانية بإصدار المراسيم "القوانين" مابين 1839-1856م وهي خط شريف كلخانة 1839م، وخط التنظيمات الخيرية 1856م، والتي جاءت تحت ضغط الدول الأوروبية أو ما عرف تاريخيا بالامتيازات الأجنبية وتدخل القناصل الأجانب في سياسات الدولة الداخلية. محاولة منها لاسترضائها في جانب كبير منها والتي أكدت في مجملها على مبدأ المساواة ما بين رعايا الدولة العثمانية بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللغة، وتأكيد الامتيازات للطوائف غير الإسلامية والتأكيد على الحرية الدينية لكل مذهب، والسماح بملكية الأجنبي وإنشاء المحاكم المختلطة وحق الرعايا الأجانب بالتقاضي أمام محاكمهم في القنصليات أو دولهم **(عوض**، 1969، ص20-28).

ومن جانب آخر كان حكم محمد علي باشا وسياسة التحديث التي قام بها في سوريا مابين 1833-1840م، وعمله على تكريس المساواة مابين المسلمين وغيرهم من الطوائف واعتماده بدرجة كبيرة وبخاصة في لبنان على العرب المسيحيين دور فيما بعد في زيادة حدة الانقسام وظهور طبقات سياسية جديدة وبخاصة بعد خروج الحكم المصري؛ فالصدمات الدموية التي ظهرت في لبنان، وآلية تعاطي الدولة العثمانية معها كانت تشير إلى التهجير القسري للسكان من منطقة إلى أخرى، الأمر الذي تبلور

بنظام القائم مقاميتين عام 1843م الذي اعتمد بموافقة عثمانية فرنسية وانجليزية، والذي تميز بطابع الحقد والاستعداد للقتال حتى قيل أنه تنظيم للحرب الأهلية بين سكان جبل لبنان الدروز والموارنة، ليصبح التدخل الأجنبي تحت شعار دعم هذا الطرف على حساب الطرف الآخر وهو في حقيقته خسارة لطرفي المعادلة الدروز والموارنة. **(ظاهر**، 1988، ص467-68**)**.

بدأت المجزرة في دمشق في التاسع من تموز/يوليو 1860م على العرب المسيحيين والمسحيين عموما، بعدما كانت قد بدأت في زحلة ودير القمر وجبل لبنان وسهل البقاع الأوسط والغربي من جهة لبنان، على مدى ثمانية أيام ارتكبت فيها حشود من رعاع دمشق ومن البدو والدروز والقرويين المجاورين والعسكر والأكراد وبمعونة من اليهود، مجازر وأعمال سلب ونهب وهتك واغتصاب وحرق للبيوت والمحلات التجارية، جرت بشكل رئيسي في حي باب توما المسيحي وتركزت أيضا على القنصليات الفرنسية والروسية والنمساوية والبلجيكية وكذلك مباني البعثات التبشيرية، يضاف إليهم المسيحيين الذين فروا إلى دمشق من سكان جبل الدروز وجبل الشيخ والمناطق الأخرى من لبنان. وبقيت الأيام الثمانية مخيمة على مجمل المشهد السياسي والاجتماعي والاقتصادي لدمشق **(خوري**، 1993، ص23؛ **الحصني**، 1979، ج1، ص265-66؛ **شلشر**، 1998، ص111**)**.

وفي أيلول 1859م انفجر صراع دموي في بلدة المتن كانت له انعكاسات مباشرة على اندلا ع الصدامات الطائفية الدموية في مختلف أرجاء لبنان. فبدأت الصدامات في 28 أيار/ 1860م واستمرت بشكل متقطع أحرقت خلالها بلدة دير القمر التي كانت أكبر تجمع ماروني في الجبل، ودخل الدروز زحلة في 19 حزيران 1860م. وتم إحصاء حوالي

أربعين قرية محروقة ومنهوبة في جبل لبنان حتى وصلت الصدمات إلى سهل بيروت (**ظاهر**، 1988، ص469).

وهناك اختلاف واضح ما بين المؤرخين حول تحدد الاضطرابات وبداياتها ومن الذي بدأ بها من الموارنة أو الدروز وبالتالي تحديد الجهة التي تقف وراء تلك الطائفة، وكيف وصلت إلى دمشق التي لم تشهد في تاريخها مثل هذا الأمر إلا على شكل مشاجرات عادية لا علاقة لها بالدين أو الطائفة فيها؛ فقد تقاذفت جميع الجهات الاتهامات ما بين الرأي الذي يقول بوجود مؤامرة يقف ورائها الانجليز وهذا ما قاله القنصل الفرنسي معتبرا زعم القنصل البريطاني بان اندلاع أعمال الشغب لم يكن مدبرا مثيرا للشبهات. وأضاف لماذا لم تتعرض القنصلية البريطانية كباقي القنصليات للهجوم، لقد كانت هناك صلات وثيقة ما بين البريطانيين ومصطفى بك الحواصيلي الذي اضطلعت قواته شبه العسكرية بدور بارز في أعمال الشغب (**شلشر**، 1998، ص116؛ **عمر**، 2014، ص230-40).

ومن جانب آخر يشير بعض الباحثين إلى أطماع فرنسا وبخاصة نابليون الثالث في المنطقة ورغبته عن طريق مشروع المهندس الفرنسي ديسلبيس بشق قناة السويس، وكذلك إلى رغبة فرنسا العارمة في ضرب صناعة الحرير المتطور في دمشق ونقلها إلى ليون أو مستعمراتها في الجزائر مستشهدين على ذلك ما أصاب السوق العالمي في الصين وفرنسا وإمكانية احتكار السوريين لمثل هذه الصناعة وبخاصة أن أغلب هذه الصناعة يقع في الحي المسيحي وهذه النهضة الصناعية كانت تتطور وتواكب آخر التطورات التقنية الصناعية العالمية في ذلك الوقت، أيّ نظام الجاكار الميكانيكي الذي كان أول من أدخله إلى دمشق في خمسينات القرن التاسع عشر الصناعي حنا بولاد

وأخوته المشهورون بإنتاج "حرير البولاديّة "، الأمر الذي توجّب تدميره بأية صورة كانت (**بولاد**، 2003، ص105).

أما الجانب المحلي الذي كان له دور في الفتنة فيرجعه البعض إلى أعداء حركة الإصلاح داخل الدولة العثمانية ورغبتهم في إحكام القبضة الرجعية على آليات حركة الإصلاح، والعودة للوراء، هذا إذا أخذنا بالحسبان أن عددا من أعيان دمشق المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة ديون طائلة للأوربيين والبيوتات المالية وللنصارى واليهود، التي امتدت حتى إلى الأراضي حول دمشق حتى بلغت بعض الديون على بعض القرى ما يزيد عن ثمنها في حال بيعها. وبالتالي كان التفكير في التخلص من كل ذلك عن طريق الزج بالمدينة في فتنة تصادر فيها الأموال والأملاك جر فيها العامة والرعاع والمتعطلين بسبب كساد حرفهم أمام المنتجات الأوروبية الرخيصة الثمن(حنا، 1985، ص255-260؛ **شلشر**، 1998، ص120) .

رابعا.الأمير عبد القادر ومحاولات وأد الفتنة:

شكا الكثيرون من وجود الأمير بين ظهرانيهم، وهو الذي ما أن وصل حتى كان من طبقة الأعيان الأشراف، وكثر حوله أهل المغرب وكثر مريدوه، وفي هذا يذكر الحسيبي:"وصار المذكور كل من راح إلى عنده يعطيه ورقة أنه مغربي... إلى أن صار مقدار خمسة ألف نفر الذين يقولوا نحنا مغاربة تبع السيد المذكور..." (**الحسيبي**، 1969، ج2، ص179). وكان الأمير خلال المرحلة تلك لازال يعمل على استقرار حاله وبخاصة أن مسؤولياته كبيرة وكثيرة، وانكب على التدريس والتأليف مبتعدا عن الحكم والحكام. ولكنه سرعان ما شغل بما يجري في لبنان من فتنة تحرق الأخضر واليابس وهو كما رأينا أول من ينتصر للمظلوم ويسكن ألم المكلوم وينصر الملهوف. وأشار العديد من شهود العيان منهم الحسيبي، وميخائيل مشاقة وغيرهم ومن الباحثين الذين استندوا

إلى الوثائق للقنصليات على أن الأمير قد سعى وكاتب من أجل وقف فتنة لبنان **(مشاقة، 1908، ص413-16؛ الحسيبي، 1969، ج2، ص197؛ شلشر، 1998، ص120-21)**، وفي هذا يذكر الشيخ البيطار: "... غير أن سعادة الأمير المعظم، والكبير المفخم قد بذل كامل همته في ذلك... "**(البيطار، 1993، ص264)**.

أما ميخائيل مشاقة فيذكر: "قنط النصارى من النجاة من مخالب الحكومة وشراسة الأتراك وحقد المسلمين... ولكن قدر لهم أن يكون بين المسلمين شهم يرق لحالهم ويرثي لمصابهم. وهذا الشهم الذي نعنيه هو الأمير عبد القادر... وكان لايترك فرصة تفوته من الدفاع عنهم واجتمع بالوالي مرات وبأعيان المدينة ووجوه قراها وحظهم على السكينة والإخلاد إلى السلام والإقلاع عن الثورة وترك النصارى وشأنهم وقد بين لهم وخامة العواقب التي تسقط على رؤوسهم إذا عملوا على الفتك بهم وكيف تخرج البلاد من أيديهم وأظهر لهم عدم جواز قتل المسحيين شرعا ودينا وأفرغ قصارى جهده في إرجاعهم إلى الهدى والصواب ولم يتركهم حتى استوثق منهم بالوعود بإجابة طلبه..." **(مشاقة، 1908، ص174)**.

ضمن هذه الهمة والغيرة على دينه وإدراكا للدور الذي يقوم به رجل شريف، فهو - نستشف من النص السابق- يدرك أبعاد المسألة وخوفه على البلاد من المتربصين فيها من الأعداء. فهو ما كان عالما بنوايا أحمد باشا الوالي في دمشق، فكتب إلى أصدقائه من الدروز داعيا أن يكونوا رحماء معتدلين متحملين لمسؤوليتهم تجاه أتباعهم؛ فتظهر خبرته وتجربته أثناء تعاطيه مع القبائل التي كانت تخرج عليه. ففي أيار/مايو كتب رسالة إلى شيوخ الدروز في جبل لبنان وفي سهول وجبال حوران: "أننا دائما ندعو لكم بالسعادة الدائمة والهناء المستمر... فأصغوا إلى ما نقوله لكم واقبلوه واعتبروا بنصيحتنا إليكم. إن الحكومة التركية وكل الناس يعرفون عداوتكم القديمة نحو مسيحي جبل

لبنان، وقد تتصورون بأن الحكومة لن تحملكم كل مسؤولية الحرب التي تدور الآن بينكم وبينهم. وقد تقبل الحكومة عذركم. ولكنكم إذا قمتم بهجوم على مكان لم يكن سكانه في يوم من الأيام أعداء لكم فأننا نخشى أن يكون هذا التصرف سببا في قطيعة خطيرة بينكم وبين الحكومة... الحكيم هو الذي يقرأ العواقب قبل أن يخطو خطوة في الطريق..." **(تشرشل، 1982 ص282).** هذا الوعي بالذات الذي قضى بالضرورة وعي بالآخر ووعي بما هي عليه التركيبة الدينية والطائفية، وهذه القدرة على الحكم بموضوعية تامة، باستخدام أسلوب استثارة النخوة العربية المتأصلة بالدروز وترهيب باستخدام سلاح الدولة .

كان الأمير كمن يسابق الزمن فمع قدوم أخبار حرق زحلة ودير القمر "ازداد مرض قلوب سفهاء دمشق فبعثوا إلى الدروز يغرونهم على نصارى بلدتهم ويعدونهم بمساعدتهم ويرغبونهم في أموالهم فوعدوهم بالإجابة بعد فراغهم من الجبل...". ضاق صدر الأمير من الأخبار التي وصلته فخرج إلى القوم خارج الأسوار فتكلم معهم بما أثر فيهم وجعلهم يذعنون لنصائحه وواعدوه بأنهم لا يحركون في دمشق ساكنا ولا يثيرون فتنة... "**(الجزائري، 1964، ج2، ص93).**

لجأ الأمير عبد القادر إلى والي دمشق وعبر له عن مخاوفه، فأكد له بأن ليس هناك ما يدعو للخوف، وكل الأخبار لم تكن سوى محض إشاعات. فكرر الأمير ذلك ثانية وثالثة ولكن دون جدوى. فما كان من الأمير إلاّ وبداء بالاستعداد بتجهيز المغاربة فشكل قوة تقرب من الألف خيال لعلمه بخطورة الموقف وأن ما سعى إلى تجنبه لابد أنه واقع **(تشرشل، 1982 ص283).** كان يوم السابع والثامن كما يذكر ميخائيل مشاقة قد تكلل ببث الطمأنينة بنفوس الناس نتيجة جهود الأمير وأصدرت الحكومة أمرا للكتاب بالطلب من الأهالي العودة إلى أشغالهم وتهللت وجوه النصارى وتفاءلوا من

هذه الهدنة. وخرج أصحاب الأعمال إلى أشغالهم وعادت الحركة التجارية(**مشاقة**، 1908، ص175). هذه القدرة على الاستشراف والقراءة العميقة لكافة المكونات الاجتماعية والسياسية، قد جعلت من الأمير ليس مجرد داعية وإنما فاعل، فالقوة التي تمّ تشكيلها تشير إلى هذا الاستشعار للخطر.

خامسا.دور الأمير في حماية المسيحيين أثناء الفتنة:

في يوم التاسع من تموز 1860م، هرع المغاربة إلى عبد القادر وأنفاسهم تتقطع وأخبروه بأن المدينة قد قامت فقال: "هذا ما كنا نحاذره ونحذر الناس منه قد وقع إنا لله وإنا إليه راجعون". ودون أن يضيع وقتا خرج في اتجاه المدينة وأمر قواته بإتباعه إلى محلة النصارى. وفي الطريق وجد جماعة من الغوغاء مع عدد كبير من الدروز، فأغلق الطريق أمامهم وخطب فيهم وعاتبهم وسعى إلى إقناعهم ببشاعة الجريمة التي هم مقدمون عليها"... لكنهم صرخوا قائلين "ماذا! أنت الذي كنت أعظم ذباح للمسيحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم هنا في مدينتنا؟ ابتعد عنا!...فصرخ هو فيهم: إذا كنت قد ذبحت المسيحيين فإن ذلك كان طبقا لتعاليم شريعتنا، وهم المسيحيون الذين أعلنوا علي الحرب والذين كانوا مدججين بالسلاح ضد ديننا..." (**تشرشل**، 1982 ص283؛ **الجزائري**، 1964، ج2، ص93). هذه الذات الكلية تدرك تماما لطبيعة الخطاب الغوغائي السائد فهو نفس الخطاب الذي نشهده اليوم، في القدرة على تجيش العامة في اتجاهات لاعقلانية بتحريك النبرة والعصبية الدينية. وهذا ما تكرر في دير العازرية فقد احتمى عدد من النصارى مع الرهبان ودافعوا عن أنفسهم عدة ساعات حتى جاءهم المدد من الأمير، فقام بإجلائهم إلى بيته تاركا الدير وما فيه لأن همه كان حفظ حياة البشر(**مشاقة**، 1908، ص175).

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع مع أحمد باشا وأعضاء مجلس الشورى وسألهم المساعدة على إطفاء شرارة الفتنة وبين لهم براهين دعمها بآيات القرآن الكريم والتي توجب على الحاكم بمقاتلة الهائجين والثوار ولو كانوا من أهل الشريعة. فنجح الأمير باستصدار فتوى من مفتي الولاية على ضرورة مقاتلة الثوار وحماية النصارى. فما مر بعض الوقت حتى جاء رسول أحمد باشا يخبره أن الباشا عدل عن اتفاقه. فما كان من الأمير إلا وعقد العزم ورفع الهمم على أن يسعى بأقصى طاقة على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح البريئة(**مشاقة**، 1908، ص175-76)**.** هذه القدرة على إصدار الأحكام واتخاذ مواقف واضحة من المذبحة دون النظر إلى ما يمكن أن يساق في مثل هذه الحالات من تبريرات، فتجريم الفعل الشنيع كان يحتاج لموقف شجاع بغض النظر عن النتائج التي تنم عن فهم عميق لروح الدين الحنيف الإنساني.

ويذكر شاهد عيان على المذبحة دور الأمير فيقول: "ولولا رجال الفضل وأهل الصلاح وأصحاب المروءة كالأمير الخطير الذي شاع صيته في الآفاق... الذي كان يطوف المدينة ليلا نهارا برجاله المغاربة الشجعان ويناديهم: يا أمة الإسلام إن ذلك لا يجوز في شرع ديننا. اعدلوا يا أمة محمد..."(**عربيلي**، 1913، ص156)**.** فبعد يأس الأمير من عدم الاستجابة له أمر الرجال المغاربة بالسعي في الإحياء وإحضار من يستطيعون إلى داره حتى غصت كل دوره بالنصارى، فكان الأمير بذلك القدوة لبعض الأعيان الذين صاروا يتبارون فيما بينهم الشيخ سليم العطار وصالح اغاشور وعمر آغا العابد وغيرهم. وكان أمره إلى الرجال بالصياح بالناس وخاصة في المناطق التي كان يختبأ بها المذعورين قائلين:" أيها المسيحيون، تعالوا لا تخشوا منا، إننا رجال عبد القادر، وإننا هنا لإنقاذكم! تعالوا، تعالوا"(**مشاقة**، 1908، ص176؛ **تشرشل**، 1982 ص 283)**.**

وفي اليوم الثالث على المذبحة خرج الرعاع ومعهم القطاع ونشروا أوامرهم في أنحاء المدينة أنه على كل من يأوي النصارى في بيته ويقدم لهم المساعدة أن يتوقف عن ذلك

ويسلمهم إليهم ليفتكوا بهم، وإن خالف فسيهاجمون بيته ويبطشون فيه وبأهله ويحرقون بيته وينهبون ما فيه. فخارت قوى البعض وخافوا على حياتهم ولم يروا بدا من التسليم **(مشاقة، 1908، ص177)**.

ونجد الأمير ثابت الموقف بالرغم من التهديد لحياته وحياة عائلته ففي نفس اليوم ثار أهل محلة الصلاحية مع أكرادها فهجموا على بيت الأمير عبد القادر يطلبون إليه أن يكف عن حماية الكفار، والحو عليه أن يسلمهم جميع النصارى الذين في بيته. فخرج الأمير عليهم برجاله وقال: "إنكم ستندمون حيث لا ينفعكم الندم. أني أنصح لكم أن ترجعوا عن غوايتكم وتعودوا إلى بيوتكم وأن تسمعوا نصيحتي. أرى نفسي مضطرا لأن أريكم العجائب والغرائب. فلا أوقفكم على قباحتكم هذه وليس عندي سوى النزال والكفاح أنا ورجالي المستعدين أن يحاربوكم ويثبتوا معي إلى النهاية حتى تهرق آخر نقطة من دمائنا على شفرات السيوف... قال هذا واستل سيفه وصاح فيهم خسئتم يا قوم أذهبوا أيها الأنذال... هذا يكون جزاؤكم من الأمير...واعدلوا عن جهالتكم"**(عربيلي، 1913، ص352)**.

وعطفا على هذه الرواية يذكر تشرشل أنه لما اجتمعت الغوغاء في بابه تريد البطش بمن عنده من النصارى، استل سيفه في الحال وخرج برفقة عدد كبير من رجاله وقال لهم:"أيها الملعونون! هل بهذه الطريقة تشرفون النبي؟ صب الله لعنته عليكم! عار عليكم عار!... إنني لن اسلم لكم مسيحيا واحدا. إنهم أخوتي. فتقهقروا وإلا أمرت رجالي بإطلاق النار..."**(تشرشل، 1982 ص285)**.

صارت بيوت الأمير والبيوت المجاورة له تغص بالآلاف الفارين من الموت، فطلب الأمير من أحمد باشا أن يسمح له بأن يرسلهم إلى القلعة، ولكن صراخ النساء والأطفال عند ذلك علا المكان: "نتوسل إليك بالله يا عبد القادر أن لا ترسلنا إلى الأتراك..." فتعهد

لهم بالأمن وعرض أن يذهب شخصيا إلى القلعة وقال أنه ما دام حيا لن تمس شعرة من رؤوسهم. فلما أوصلهم الأمير بنفسه نظر له الأتراك بنظرة شزر وتهكم، وفي الطريق كان النصارى يقولون: "لاتتركونا تحت رحمة الترك! عودوا الينا...". وعندما غصت القلعة بهم تقرر فصل الرجال عن النساء. فظن الجميع أن لحظة الموت قد جاءت حيث كان الدروز يتهيئون لذلك. إلاّ أن العناية الإلهية تمنع مجزرة محققة فقد علم عبد القادر فخرج للدروز فحاورهم وأقنعهم ونجح في ذلك **(تشرشل**، 1982، ص285 **)**.

كان الأمير خلال أيام الفتنة لا ينام إلا والسلاح بيده، فقد كان يشعر بمسؤوليته الشخصية عن كل فرد فيهم صغيرا كان أم كبيرا، افترش على مدخل باب بيته حصيرا خشنا ولازمه، ليعطي المنكوبين شعورا بالأمان، وكان يوزع الأرزاق ويوزع الفرق والرجال على الحارات ويتفقد نوبات الحراسة ويحرص على تأمين من أراد الخروج إلى بيروت بنفسه. ما فرّق بين أصحاب المناصب والرتب والعامة في منح الأمان؛ ولكنه كان يحفظ للناس مقاماتهم في المعاملة، فداره غصت بموظفي القناصل على اختلاف دولهم ما عدا القنصل البريطاني الذي طلب من باشا المدينة توفير الحماية له فأرسل له حامية تركية. وفي أحد الأيام(الأخيرة) سمع أحد الحرس الذي يتقن التركية أنهم سوف يقومون بنهب القنصلية وقتل من فيها فما كان من القنصل إلاّ وطلب النجدة من الأمير فأرسل له قوة حلت محل الفرقة التركية**(تشرشل**، 1982 ص286؛ **مشاقة**، 1908، ص178-180**)**.

كانت هذه المذبحة الأليمة صفحة سوداء في تاريخ دمشق؛ صفحة بيضاء في تاريخ عبد القادر الناصع. ومن جانب آخر كانت هذه الحادثة فرصة تاريخية للدولة العثمانية في إحكام قبضتها. فقد لحق فؤاد باشا وزير الخارجية الإصلاحي الذي نجح في فرض تسوية مؤقتة في جبل لبنان بالوالي العثماني الجديد مدعوما بأربعة آلاف جندي. حيث سعى لتفادي التدخل الفرنسي باسم المسيحية الشرقية، فشكل حكومة عرفية وألقى

القبض على ألوف من أهل دمشق وعلى كل من وجه له الاتهام من قريب أو بعيد بما حدث وشكل لجنة مؤلفة من دمشقيين معروفين مسلمين ومسيحيين لتحديد التعويضات عن الخسائر التي لحقت بسكان باب توما. فصدرت الأحكام السريعة بإعدام (111) شخصا رميا بالرصاص وشنق(56) وحكم بالإشغال الشاقة على (186) وأرسل إلى المنافي والسجون حوالي ألف شخص واعدم أحمد باشا والي المدينة وكانت كل هذه الإجراءات والمحاكمات قد تمت بسرعة فائقة قبل وصول الأسطول الفرنسي إلى ميناء بيروت **(خوري**، 1993، ص23؛ **حنا**، 1985، ص268؛ **الجزائري**، 1964، ج2، ص94-95).

وهنا لا بد من الإشارة إلى موضوعية وعدالة الأمير في سرد الأرقام حول أعداد الضحايا دون مبالغة، ورواية للأمير حول الأحداث لابد من تسجيلها ففي رسالة من الأمير إلى صحيفة نيويورك تايمز حول أحداث دمشق مؤرخة 18 تموز، قال الأمير: " لقد علمتم انه في يوم الإثنين 9 تموز حوالي الساعة الثانية ظهرا اندلعت الحرب نتيجة معاقبة بعض المسلمين لتعرضهم و أساءتهم للمسيحيين، هؤلاء المسلمين هرعوا في توتر شديد مسلحين للعظم إلى القسم المسيحي من المدينة و بدأوا القتل و الحرق و النهب في آن واحد، وساعدهم في ذلك الجنود الأتراك الذين أدعو محاولة وقف الاضطرابات ولكنهم كانوا يغذون و يشاركون المشاغبين في القتل و النهب و السلب. بعض حكماء المسلمين قاموا بمحاولة إيقاف هذه الأفعال ولكن الضباط الأتراك لم يرغبوا في أحلال السلام ولكن على العكس أمروا جنودهم بملاحقة المسيحيين البائسين و دعموهم بأفواج من المجرمين من كل طائفة. و بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد الخطير لم أدخر وقتا و جهدا لحماية هؤلاء البؤساء، وذهبت مسلحا بقوة أتباعي الجزائريين واستطعنا أن ننقذ الأرواح من رجال و نساء و أطفال ونرجع بهم سالمين إلى

بر الأمان. هذه الحالة استمرت ليومي الاثنين والثلاثاء حيث لم يتوقف المشاغبون عن القتل والحرق والتضحية بالمسيحيين، من دون أبداء أي عون من جهة الوالي لهؤلاء المسيحيون.

وفي يوم الأربعاء وفي ظل الادعاء بمقتل أثنين من المسلمين وهذا ليس بالسبب عادت الحرب للاشتعال، ووالي دمشق عدمه ووجوده واحد، و من جهتي فأنا اعبر عن شديد الأسف للمأساة التي حلت بالمسيحيين من حرق و تدمير لمناطقهم و بيوتهم. لا نعرف تماما عدد القتلى و لكنهم يقدرون بحوالي (3300)، وكل المسيحيون والأوربيون الذين أحتموا بمنزلي هم سالمون، أمنت لهم جميع احتياجاتهم وأدعو الله أن يحفظ وينجي المسيحيين البؤساء من هؤلاء غلاة المتعصبين... "(**العطار**، رسالة الأمير عبد القادر إلى النيويرك تايمز http: //www. alwaref. Org).

وأخيرا فلا بد من الإشارة إلى علاقة الأمير بالفرنسيين والتي حاول البعض الدخول منها في ربط الأمير بتنفيذ أجندة فرنسية في بلاد الشام، فقد قالوا بأن القوة التي شكلها الأمير كانت بدعم نابليون الثالث صديق الأمير الذي أغدق عليه الأموال(**شلشر**، 1998، ص120-21)؛ ورأينا أن هذه القوة ما كانت لتكون لولا الأحداث التي جرت والتي يضعها-القوة- الأمير في خدمة الدولة العثمانية فيما بعد. كما أن من قام بدراسة موقف بريطانيا اعتمادا على الأرشيف البريطاني لم يشر إلى أي صلة من قريب أو بعيد للأمير بفرنسا (**للمزيد انظر: عمر**، 2014، ص230-40).

فتدخل الأمير بالشأن الدمشقي فرضته الأحداث ولم يسعى له الأمير، فهو كما أشرنا سابقا ترك الإمارة السياسية إلى إمارة القلم. وفي هذا السياق يورد الأمير محمد في تحفة الزائر عن اتصال الأمير الوالد بالفرنسيين قوله: " وفي أثناء وجود العساكر الفرنساوية في بيروت حصل اختلاف بين فؤاد باشا والجنرال الفرنساوي فبعث

الجنرال رسولا مخصوصا للأمير يخبره بأنه اعتمد على ضرب دمشق من الصالحية فليخرج بأهله ومتعلقاته منها. فاغتنم الأمير ذلك وبعث للجنرال بأن يوافيه بالبقاع وعين له قرية قب الياس محلا للاجتماع... فاجتمع بالجنرال وأظهر له سوء عاقبة ما اعتمد عليه. فأصر الجنرال على ذلك. فهدده الأمير وعظم له الأمر حتى عدل عن ذلك ورجع كل منهما وأسرها الأمير في نفسه وجعلها خالصة لوجه الله تعالى..." (**الجزائري**، 1964، ج2، ص95).هذا الدور الكبير للأمير والذي كتمه فإن دل على شيء فهو القدرة على نكران الذات والإيمان العميق بعدالة القضية التي يحملها؛ فعندما يشير البعض لطمع الأمير بدور يمكن أن يلعبه في المنطقة لوجدنا الأمير يتبجح بهذا الدور ليعزز فرصه وهو كان قادرا على مثل هذا الدور .

انهالت على الأمير كتب التكريم والتمجيد لفعله الذي لاقى أصداء عالمية، فسيفه الذي أشهره بوجه فرنسا سبعة عشر عاما كان نفس سيف العدل الذي حمى به نصارى الشام، ولسانه الذي كان رطبا بالذكر هو نفسه اللسان الذي كان يرعد في ساحات دمشق انتصارا للمظلومين ومدافعا عنهم؛ وعلمه الغزير كان حجة أمام من أراد أن يشوه وجه الإسلام المتسامح. وعلاقاته واحترامه كان كله موظفا في خدمة قضيته العادلة الأولى الحرية وكرامة بني البشر. فهاهو السلطان العثماني ينعم على الأمير بالنيشان المجيدي العالي الشان بفرمان صورته: «قد أحاط علمي الشريف السلطاني بحال الحمية الدينية الثابتة في أصل فطرة الأمير... قد اضطره إخلاصه لاستعمال الهمة والغيرة في تخليص عدد كثير من تبعية دولتي العلية الواقعين بأيدي الأشقياء الظالمين عند وقع الفتنة والعناد مؤخرا في الشام، من بعض ذوي التوحش الجاهلين بالوظائف العلية الإسلامية والأحكام الجليلة الشرعية...ولأجل...خدمته الخيرية الواقعة أحسنت إليه

بنيشاني المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى..." **(الجزائري**، 1964، ج2، ص96 **)**. وكذلك فعل الصدر الأعظم.

وكتب وزير خارجية فرنسا يخبره بأن الإمبراطور يشعر بداعٍ ذاتي يدعوه إلى أن يخبركم عن فرحه الشديد بإجراء ما أجريتموه، وأنا أرجوكم قبول التهاني الشخصية. ثم حضر كبير المترجمين في الحكومة الفرنسية مبعوثاً من الإمبراطور وقدم إلى الأمير نيشان "الليجون دونور" المرصع من الرتبة الأولى. وأرسل فلهيلم الرابع ملك بروسيا نيشان "صليب النسر الأحمر" من الطبقة الأولى مع ختمه الملوكي. وكذلك أرسل اسكندر الثاني قيصر روسيا نيشان "النسر الأبيض" أعظم نياشين القيصرية مشيداً بشهامته، مؤكداً محبته له. وأرسل ملك ايطاليا فكتور عمانوئيل رسالة مطولة امتدح فيها محبة الحرية واعتبره في عداد المقاتلين لاستقلال الشعوب، وأرسل مع اثنين من ضباطه "نيشان موريس واليعازر" أقدم نياشين الفروسية. وأرسل قنصل انكلترا في دمشق برسالة تقدير وشهادة مستفيضة إلى الأمير. وبعدها بعثت الملكةُ بندقيةً كتب على ظهر صندوقها: "من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة إلى صاحب السمو... تذكاراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة 1860"**(للمزيد انظر: الجزائري**، 1964، ج2، ص99 وما بعدها**)**.

خلاصة واستنتاجات :

في ظل الأفق المسدود في عالمنا العربي الآن، هي كلمة البدء حول الآخر في فكر الأمير عبدالقادر، شخصية ليس المقصود تجميلها أو البحث عن مبررات لفعلها عبر التاريخ، وإنما هي محاولة أفضت بنا إلى التأكيد على الدور التاريخي للأمير، لنعود إلى الأسئلة مرة أخرى التي بدأنا بها في التقديم فقد كان لنا فيمن مضى قدوة حسنة في كيفية التعاطي مع الأحداث مع مذبحة هزت بنية الكيان الجمعي للمجتمع. فهل نحتاج كل يوم لنذكر بأنه لدينا القدرة على تجاوز ذلك، فكم نحتاج إلى أمثال عبدالقادر والمذبحة تتم الآن بشكل منظم ومبتكر، فالقاتل منا والمقتول منا ودافع الفاتورة منا،

ولكن الخطط والتدابير تتم في ظلام الآخر. إن تأكيد الحقائق التي استعرضتها الدراسة تعيد الجدال الذي لازال يدور حول شخصية إشكالية في منهجها وقدرتها على استشراف القادم؛ وبالتالي تضع الأمور في موازينها وتأكيد الرؤية الواضحة للآخر لدى الأمير عبد القادر حيث لعبت التجربة العملية والخبرة والممارسة دورها في رسم معالمها فكان مثالا لممارسة ما يؤمن به ولذا لا بد من تأكيد ما يلي :

- لعب الأمير دورًا مميزًا وتاريخيًا في التخفيف من آثار مذبحة دمشق 1860م.
- لازال العالم ولو نظريًا يقدر الدور الإنساني لشخصيات عالمية لعبت دورها في الحد من العنف العالمي والصراعات، فهل نستكثر على الأمير التكريم العالمي الذي حظي به.
- اجمعت كافة أطراف الصراع في الفتنة على الدور المميز الذي قام به الأمير في التقليل من نتائج الفتنة.
- الطريقة المتأنية لطريقة الفهم الحداثي للأمير لدينه ودوره تعيد إلى الأذهان فكرة ضرورة إعادة النظر في الموروث في إطار حداثي يوازن ولا يقطع يجتهد ولا يجتر.

قائمة المصادر والمراجع

- **البيطار، عبد الرزاق (1993):**حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ط2، بيروت: دار صادر.
- **بولاد، توفيق يوسف (2003):** تاريخ الفنون والصناعات الدمشقية، ترجمة الياس بولاد، ط1، دمشق: مطابع ألف باء الأديب.
- **تشرشل، شارل هنري (1982):** حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم سعد الله أبو القاسم، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- **الجزائري، عبد القادر (2004):** المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني القادري، جزآن، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- **الجزائري، محمد عبد القادر (1964م):** تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، تحقيق: ممدوح حقي، ط2، بيروت: دار اليقظة.
- **الحسيبي،كناش محمد أبو السعود(1969):** لمحات من تاريخ دمشق في عهد التنظيمات، تحقيق: سليمان الصليبي، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية في بيروت، السنة 22، ج1 وج2.
- **الحصني، محمد أديب آل تقي الدين(1979):** منتخبات التواريخ لدمشق، تقديم: كمال الصليبي، 2ج، ط1، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- **حمو، فرعون (2013):** فلسفة الاختلاف عند الأمير عبد القادر الجزائري (دراسة أنثروبولوجية) مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، معهد الثقافة الشعبية، قسم الأنتروبولوجيا.
- **حنا،عبد الله (1985):** حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: نموذج المدن في ظل الإقطاعية الشرقية. ط1، بيروت: دار ابن خلدون.
- **خوري، فيليب(1993):** أعيان المدن والقومية العربية: سياسة دمشق 1860-1920م، ترجمة: عفيف الرزاز، ط1، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية .
- **خير بك،بشرى (٢٠١٢):** دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضاتها: "تحفة الزائر ومآثر عبد القادر وأخبار الجزائر " أنموذجا للدراسة، مجلة دراسات تاريخية – العددان ١١٨ -١١٧كانون الثاني-حزيران لعام 2012.
- **ديلو، ستيفن (2003)** التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، ترجمة ربيع وهبة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- **الزعبي، امجد (2010):** التاريخ السياسي والاقتصادي لألمانيا: دراسة في تجربة الوحدة الألمانية من خلال برلمان فرانكفورت 1848-1849م. عمان: مديرية الثقافة –أمانة عمان.
- **سعيدوني، ناصر الدين (2012)**، عالم القرن التاسع عشر: عصر الأمير عبد القادر، أعمال الاستاذ ناصر

الدين سعيدوني. ج1. الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع.

- **شرشار، عبد القادر (2011):** شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر: ترجمة أشهر مؤلفات الأمير عبد القدر من قبل الباحث الفرنسي جوستاف دوجا، إنسانيات: المجلة الجزائري في الانثربولوجيا والعلوم الاجتماعية، عدد 54، ص19-31 نسخة الكترونية insaniyat. revues. org/5976
- **شيلشر، ليندا(1998):** دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ترجمة عمر الملاح، دينا الملاح، ط1، دمشق: دار الجمهورية.
- **ظاهر،مسعود (1988):** الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني: نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر. ص 461-477، من كتاب مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العربية في أثناء العهد العثماني. جمع وتقديم عبد الجليل التميميي. تونس-زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات).
- **عربيلي، إبراهيم أفندي**(1913): (شاهد عيان)، مذبحة سنة 1860م في دمشق، مجلة الكلمة، نيويورك، العدد 3، السنة التاسعة، آذار.
- **عمر، يوسف حسين (2014):**سياسة بريطانيا تجاه الأزمة السورية 1860م، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد 33، حزيران.
- **عوض، عبد العزيز** (1969): الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914م، ط1، القاهرة: دار المعارف.
- **مشاقة،ميخائيل**(1908): مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ط1، القاهرة: د.ن.
- **مراد، بركات محمد** (د.ت): الأمير عبد القادر الجزائري: المجاهد الصوفي. القاهرة: دار النشر الالكتروني، د. ت.
- **مياسي، إبراهيم (2011)**، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية .الجزائر:هومة للطباعة والنشر.
- **الوزير، محمد السيد** (1984): الأمير عبد القادر الجزائري: ثقافته وأثرها في أدبه، (الرياض: مكتبة الملك فيصل الإسلامية.